المحاضرة السادسة

اطوار النقد

أفلا يزال منكم على ذكر ماقلته لكم في آخر مجلس من مجالسنا ، أفلا يزال عالقاً بحفظكم ان تاريخ الأدب شيء وان النقد شيء آخر ، فقد حدثتكم بخصائص المؤرخات الادبية ، وتعرضت لبعض المطاعن فيها ، فأرى ان اجعل النقد حديثي في هذه الامسية فألمح الى أطوار النقد في لغتنا الكريمة في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمن بني أمية وبني العباس ، ثم أجمل الكلام على النقد الادبي في بعض لغات الغرب في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

كان نقد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام وفي ايام بني أمية حكماً مختصراً يحكمونه على شاعر من الشعراء او لشاعر منهم ، وقد كان يجري شيء من هذا النقد في اسواق العرب وانديتهم في الجاهلية وفي مجالس الخلفاء وقد ملئت كتب الادب بكثير من موجز هذه الأحكام انقل اليكم نماذج منها على سبيل الاستشهاد .

قيل للحطيئة من اشعر الناس فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية وقال : هذا اذا طمع .

وقال عبد الله العباس : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انشدني لأشعر شعرائكم قلت : ومن هو يا امير المؤمنين ، قال زهير ، قلت : وكان كذلك ، قال : لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه .

وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء في الجاهلية وأشعر شعراء وقته فقال : اشعر الجاهلية امرؤالقيس واضربهم مثلاً طرفة ، واما شعراء الوقت فالفرزدق أفخرهم وجرير اهجاهم والأخطل اوصفهم .

من هذه الامثلة القليلة يتبين لكم ان النقد كان عبارة عن خطرات سريعة ونظرات عجيلة لا يستند الى شيء من قواعد الفن الشعري الا ان هذه الأحكام كانت صادقة في معظم الاحايين تصدر عن بديهة وفطنة حتى جاء القرن الثالث فدخل النقد في طور آخر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وألف المؤلفون فيه كتباً منها طائفة زعم اصحابها انها تشتمل على تفصيل الشعراء من اهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين وانزالهم منازل والاحتجاج لكل شاعر بما وجده اصحاب هذه الكتب من حجة له ، وما قال فيه العلماء ، من هذه الكتب : طبقات الشعراء للجمحي ، غير ان صاحب هذه الطبقات لم يبحث الا عن الصور الفنية كحسن الديباجة وكثرة الرونق وجزالة البيت وما شابه ذلك ، كقوله مثلاً كان الحطيئة متين الشعر ، شرود القافية . وكان نابغة بني جعدة شاعر مفلقاً فلا يختلف طراز هذه الآراء عن الطراز القديم .

ومنها طائفة تتضمن قواعد الشعر ككتاب ابي العباس ثعلب الا ان بعض الذين توسعوا في هذا الباب هم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء ، وقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، وابن عبد ربه في عقده الفريد ، والآمدي في موازنته بين ابي تمام والبحتري والجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصومه ، وابن رشيق في كتابه العمدة الى غيرهم من الذين كتبوا في تراجم الشعراء والكتاب كالثعالبي وابن خلكان .

كانت هذه الكتب اشبه شيء بكتب الفن الشعري في بعض أمم الغرب فانها تشتمل على قواعد الفن والذوق فلم يشر اصحابها الى الآثار الادبية الا من حيث الصور الفنية فلم يخبر ابن قتيبة مثلاً في كتابه : الشعر والشعراء ، الا عما يستجاد من شعر الرجل وما اخذه العلماء عليه من الغلط والخطإ في الفاظه ، فلم يخبر الا عن الوجوه التي يختار الشعر عليها ، ويستحسن لها ، وكل هذا لا يتعدى المحاسن اللفظية غير ان ابن قتيبة قد تبسط في بحثه عن القديم والحديث بعض التبسط فقال : ولا نظرت الى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، فالذي يدل عليه باطن كلام ابن قتيبة ان القديم انما هو قديم بالنسبة الى عصرنا ولكنه حديث بالنسبة الى العصر الذي ظهر فيه ولكن الذي توسع في قواعد الفن انما هو ابن رشيق في كتاب العمدة ، على انه مع توسعه هذا لم يجاوز نقده الاقتصار على الصور الفنية فقد قال في فضل الشعراء :

(كل منظوم احسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة الا ترى ان الدر وهو اخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه ، اذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الباب الذي له كسب ومن اجله انتخب وان كان اعلى قدراً واغلى ثمناً فاذا نظم كان اصون له من الابتذال واظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال وكذلك اللفظ اذا كان منثوراً تبدد في الاسماع وتدحرج عن الطباع) .

فكان الشعر عبارة عن الفاظ تشبه الدر على ان ابن قتيبة كان يعرف ان العرب احتاجت الى الشعر لتغني بمكارم اخلاقها وطيب اعراقها وذكر ايامها الصالحة واوطانها النازحة ولكنه نظر الى ظواهر الاكسية التي كانت تصون كرم هذه الاخلاق وطيب هذه الاعراق وصلاح تلك الايام ونزوح تلك الاوطان ولم يتغلغل في بواطن هذا الكرم وهذا الطيب وقد كان في هذه الكتب كلها شيء من النقد اللغوي وهو على ما اعتقد الاساس الذي لا يستغني عنه النقد الأدبي نفسه ، وان كان يختلف عنه ، فلا نكاد نجد نقداً ادبياً دون ان يكون فيه نقد لغوي فالكتب التي ذكرتها لم تنظر في روح الشاعر وفكره وعاطفته فلم تفكك اجزاء هذا الشاعر وتبحث عن كل جزء منها ، فكان العصر الذي ظهرت فيه عصر صور فنية الا ان فريقاً من المؤلفين اشاروا الى تأثير بعض العوامل في الشعراء كتأثير البيئة من حاضرة وبدو وتأثير المزاج من سلاسة في الطبع وجفاء في الخلقة ومنهم الجرجاني في وساطته وهذا مذهب طريف في نقد الادب في لغة العرب يكاد يشبه مذهب « تين » في النقد الحديث وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

ومن هذا القبيل ابو عامر ابن شهيد الاندلسي فالآثار الادبية في نظره صور ظاهرة تدل على بواطن اصحابها فمن قوله :

« ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه من اصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في اجمل هيأتها ، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من اصل تركيبه والغالب عليه جسمه كان ما يطلع في تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الاولى في التمام والكمال وحسن الرونق ، وهذا الاسلوب في النقد يكاد يشبه اسلوب سانتبوف في هذا العصر ومذهب سانتبوف التعمق في روح المؤلف حتى يبعث من مدفنه فنرى هيأته وصورته ...

اما التراجم فكنتم تجدون في معظمها اساليب متشابهة والفاظاً متقاربة بحيث يتحقق عندكم ان الشعراء الذين ينقدهم اصحاب هذه التراجم متماثلون في صيغهم وقوالبهم فمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قول اصحاب هذه التراجم : فلان احد افراد الدهر في النظم والنثر وفلان فرد دهره وشمس عصره وفلان اعجوبة الزمان ونادرته وفريد عصره و باقعته ، فيكاد يخيل اليكان الناس كلهم اعاجيب الزمان ونوادره وآحاد الدهر وشموسه ، أفلم يعسعس ليل الى جنب شمس من تلك الشموس .

هذه هي جملة اطوار النقد في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمن بني امية وبني العباس اتيت على ذكرها على سبيل الايجاز ثم وقف النقد وقفته فلننتقل الى اطوار النقد في بعض لغات العرب في القرون الوسطى وفي العصر الحديث .

ما اظن ان ادباً من الآداب قد نمت مذاهبه وامتدت ظلاله في العصور الاخيرة دون ان يكون للنقد الاثر الابلغ في نمو هذه المذاهب وامتداد هذه الظلال ، فالادب الالماني في القرن التاسع عشر قد انبلج نوره من افق الناقد « لسينغ » وقد كان النقد روح الادب الفرنسي من ثلاثة قرون ، ولم يحدث حادث في هذا الادب وفي اذواق اهله من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا الا كان النقد مصدر هذا الحادث او اصله ، حتى ان كثيراً من شعراء فرانسه امثال رونسار ومالرب وبوالو وفولتير وشاتو بريان وهوغو قد اعتمدوا على النقد ولجأوا اليه في بسط آرائهم ومعتقداتهم في الادب .

نشأ النقد الادبي الحديث في ايطالية في القرن الخامس عشر وقد كان لنشأته عوامل شتى منها عاملان كبيران : عامل باطن وعامل ظاهر ، اما العامل الظاهر فهو اضطرار رجال التجديد في ايطالية الى تعارفهم وانصرافهم الى استخراج ما خفي من الكنوز في متقدم العصور من مدافنها ، واما العامل الباطن فهو تيقظ « الشخصية » فقد كان الرجل في القرون الوسطى تابعاً لطبقته ولرجال نقابته ، قبل ان يكون مالك امره ، فلم يكن له في كل حين تصرف في شأنه وعمله وفكره فلما طلع فجر التجديد تيقظت « القوميات » وخرج الفرد عن الرق فاصبح هم رجل الفن ان يدخل في عمله سواء أكان هذا العمل شعراً ام كان تصويراً شيئاً من روحه اي شيئاً من طابعه[1] .

ثم انتقل النقد من ايطالية الى فرنسة فصبغ فيها بصبغة ادبية فجعل نقدة الكلام في

(١) رأي الاستاذ برونتير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تآليفهم المحل الاول للمبادئ والمذاهب ، اني لا اتعرض في هذا المقام لتطور النقد في فرنسة فهذا خارج عن موضوعي ، فلا أتعرض لكتب الفن الشعري في العصرين السادس عشر والسابع عشر ، ولما كانت تشتمل عليه هذه الكتب من قواعد الذوق والفن ، ولا انصدى لاضجاج القوم في مسألة القديم والحديث ، ولما نشأ عن ذلك من خروج النقد عن طور ودخوله في طور آخر فبعد ان كان الناقد يدرس الآثار من حيث انها آثار شرع يدرسها من حيث انها صور الحضارات ، اني لا انصدى لتطور النقد بعد هذا كله فقد اصبح للأثر الادبي في نظر « فيلمان » ارتباط وثيق بالاوضاع الاجتماعية والسياسية .

كل هذا لاحاجة بنا اليه في هذا المقام ولربما مست الحاجة اليه في العام المقبل ، ربما احتجنا اليه في دراسة نقدنا الادبي في اطواره كلها في الجاهلية وصدر الاسلام وفي زمن بني امية وبني العباس وفي عصرنا هذا فقد نضطر الى شيء من ذلك اذا درسنا هذا النقد وقابلنا بين اطواره وبين اطوار النقد الحديث .

كل هذا لا حاجة بنا اليه اليوم على انه لا اجد لي بداً من ان اذكركم اربعة نقدة قد استفاضت مذاهبهم في الادب الحديث وكان لها اثر فيه ، واريد بهم فيلمان وسانتبوف وتين و برونتير فاذا اردنا ان نفهم اوضاع الادب الحديث فلا مندوحة لنا عن الاطلاع على مذاهب هؤلاء النقدة .

اما « فيلمان » (١٧٩٠ — ١٨٦٧) فهو مؤلف كتاب درس الادب الفرنسي ، واستاذ البلاغة في السوربون ، وصاحب سر (الاكادمية) وكتابه هذا كان فاتحة النقد الحديث فقد جعل فيلمان للمجالس الاجتماعية اثراً في الادب فقال :

لم يخرج من المجالس النيابية نوع حديث في الادب فقط او صبغة خطابية او بلاغة سياسية بدلاً من البلاغة الدينية وانما خرج منها شيء آخر ، هبت من هذه المجالس نفحة حياة خرج من هذه المجالس عنصر حديث امتزج باجزاء الادب كلها فبدّل منها وغيّر واعاد اليها شبابها .

واما « سانتبوف » ١٨٦٩ — ١٨٠٤ فقد حاول ان يطوي من ظل العاطفة الشخصية في النقد على قدر الامكان ، فالناقد في نظره يجب عليه ان يكون منزهاً عن كل غرض حتى يستطيع ان يكشف اسرار ارواح تختلف عن روحه ، يجب عليه ان يكون صاحب عقل مطلق لا يشغله غرض من اغراض الفن والاخلاق والدين والسياسة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالنقد يلزمه ان يكون في حيدة عن كل شيء على نحو حيدة العلم .

لا يريد « سانتبوف » ان يكون النقد تابعاً لافيسة محدودة فاذا كان تابعاً لشيء من ذلك فكأننا نحاول ان نلزم الاشياء ان تكون تابعة لمذاهبنا فالطبيعة مملوءة بامور متنوعة وقوالب مختلفة فلا يلزم الناقد ان يكون خاضعاً لسلطان واحد ، وقد اعترض على تبيعه «تين» لما شاء هذا ان يطبق مذاهب العلم في العقل البشري و يجعل للعبقرية الشخصية أسباباً عامة . يقول « سانتبوف » ينبغي للناقد ان يتجرد من نفسه في النقد ، فمن شروط عبقرية النقد ان لا يكون للناقد فن وان لا يكون له أسلوب فاذا كان للناقد شيء من ذلك صرف همه الى اثره الخاص فظهر أسلوبه في خلال الاثر الادبي الذي ينقده .

فاذا احتاط الناقد في هذه الامور كلها وجب عليه يومئذ ان يبعث كل مؤلف من مرقده حتى نرى هيأته الخاصة على ان يعتني بكل الظروف التي اتى على ذكرها المؤلف في ترجمته ومن هنا يتبين لكم ان النقد أصبح كناية عن تعمق في روح المؤلف .

اراد سانتبوف ان يدرس آثار الرجال على نحو درس علماء الطبيعة لنماذج الانواع المختلفة في عالمي الحيوان والنبات الا انه يرى ان اليوم الذي نستطيع فيه تصنيف الكتاب اصنافاً ، ان اليوم الذي نستطيع فيه وضع تاريخ طبيعي للعقول انما هو يوم بعيد على ان الذي يهم انما هو وصف الافراد على وجه الضبط .

واما تين (١٨٢٨ — ١٨٩٢) فكل اثر من الآثار الفنية في نظره يصدر عن صاحبه حتماً لعلة من العلل الخارجة لان لرجل في الطبيعة يتبع القوانين العامة على نحو المخلوقات واليكم قوله :

قد يمكن ان يعتبر الرجل حيواناً من نوع سام يضع فلسفة ويقول شعراً كما تنسج دبدان القز بيوتها وكما تبني النحل خلاياها فاذا وجدنا بستاناً ونحلاً فاننا نريد ان نعرف كيف يكون بناء الخلية .

من هنا يظهر لكم ان تين قد حاول ان يطابق بين العلم وبين نقد آثار العقل والعاطفة وعلى هذا فقد أراد ان يجعل النقد تاريخاً طبيعياً كبيراً نفسر فيه الآثار والقرائح والامزجة بحسب الجنس والبيئة والزمن ، لقد أدخل تين عناصر حديثة في دراسة الآثار الادبية الا ان مذهبه لا يخلو من بعض المبالغات وقد اثر في الفلسفة وفن الرواية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم جاء برونتير (١٨٤٩—١٩٠٧) فانبسط سلطانه على العقول حيناً من الدهر ومذهبه في الأدب مذهب النشوء والارتقاء قال :

انا نعلم ما استفاده التاريخ الطبيعي والتاريخ والفلسفة من هذا المذهب ، فأريد ان أبحث عن هذا الامر : أفلا يستطيع التاريخ الادبي والنقد الادبي ان ينتفعا بهذا المذهب ، انما مثل الانواع الادبية في نظره كمثل انواع الحيوان والنبات فانها تولد فتعيش فتموت او تتحول وهو لا يؤمن بمذهب التولد الذاتي في الادب ، فالطريقة الغنائية في القرن التاسع عشر لم تظهر فجأة وانما قد هيئت من القرن الثامن عشر .

هذه نظرة عامة في أطوار النقد الادبي الحديث ليس فيها شيء من التطويل والتفصيل وانما غايتي اطلاعكم على الزهيد من مبادئ هذه الاطوار حتى لا تكون غريبة عن اذهانكم وقد تبين لكم من هذه النظرة كيف امتد سلطان العلم الى افاق الادب فامتزج بالادب علم النفس والتاريخ الطبيعي وعلم التشريح وعلم الفيزيولوجيا ومذهب النشوء والارتقاء ثم دخل النقد بعد برونتير في طور آخر وقل اعتناء النقدة بالاقيسة والمذاهب وجعلوا همتهم ان ينقلوا الينا الآثار التي رسخت في نفوسهم من قراءة كتاب من الكتب او ان يفهموا هذه الكتب ويفسروها لنا .

وجملة القول : النقد يحيط بالبلاغة والآداب الرفيعة والفلسفة والتاريخ وما شابه ذلك فلا يصح ان يكون النقد في حال من الاحوال ثرثرة وهذياناً او خلطاً وتخبيصاً .

دمشق : في ١٤ كانون الاول سنة ١٩٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net